إنسانية الحضارة الإسلامية وعالميتها

بقلم

الدكتور

سامي عفيفي حجازي

أستاذ العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين — بالقاهرة

مفهوم الحضارة

لبيان مفهوم الحضارة الإسلامية يقتضى الأمر أن ننظر فى معنى الحضارة بوجه عام والحضارة الإسلامية بوجه خاص ، وإذا كان لابد من أن نبدأ بالتعريف اللغوى فإننا نتناول ما ورد فى معناها كما هى فى الضوابط والقواميس اللغوية .

الحضارة لغة : هى الإقامة فى الحضر ، وتدل على إقامة مجموعات من الناس فى الحضر ومواطن العمران التى يكون لهم بها قرار ، وتقابلها كلمة « البادية » التى هى مشتقة من بدأ يبدو أى برز وظهر وهى تعنى التنقل فى البادية أو الصحراء ، وتعنى حياة أهل البادية المتنقلة التى تسكن الخيام وتعيش على رعى الأغنام .

فكأن المقابلة بين الحضارة والبداوة هى مقابلة بين حياة الاستقرار وحياة التنقل ، ولذا يوصف أهل الحضر بأنهم أهل الأمصار التى يكون لهم بها قرار[1] ، كما أن أحوال أهل الحضارة ناشئة عن أحوال أهل البداوة وأنها أصل لها[2] .

الحضارة فى الاصطلاح :

عرف ابن خلدون الحضارة بأنها ذلك النمط من الحياة المستقرة ،

---

(١) العلامة ابن منظور لسان العرب جـ ٢ ص ٩٠٧ مادة حضر ط دار المعارف بمصر بتصرف يسير مع تقديم وتأخير وراجع المعجم الفلسفى للدكتور جميل صليبا جـ ١ ص ٤٧٢ ط ١٩٨٢ بيروت .

(٢) راجع دائرة المعارف — قاموس عام لكل فن ومطلب — تأليف المعلم بطرس البستانى جـ ٧ ص ٩٧ ، ط دار المعرفة بيروت لبنان .

والذى يناقض البداوة ، فينشىء القرى والأمصار ، ويضفى على حياة أصحابه فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع ، والعلم والصناعة وإدارة شئون الحيـــاة ، والحـكم وترتيب وسائل الدعة وأسباب الرفاهية[1] .

ولذا كان مفهوم الحضارة يدل على مظاهر التقدم العقلى والمـادى معا ، وهى ذات طابع اجتماعى ، الأمر الذى جعل هذا المفهوم يتطور مع الزمن فى تاريخ الحياة الإنسانية .

أى ومع أن هذا اللفظ قديم ، فإن أول من أطلقه على معناه الحاضر هو العلامة ابن خلدون حيث فرق بين العمران البدوى والعمران الحضرى ، وجعل أجيال البدو والحضر طبيعة فى الوجود .

فالبداوة أصل الحضارة ، والبدو أقدم من الحضر ، لأنهم يقتصرون على انتحال الزراعة ... لتحصيل ما هو ضرورى لمعاشهم .

أما الحضر فإن انتحالهم للصنائع والتجارة يجعل مكاسبهم أكثر من مكاسب أهل البدو ، وأحوالهم فى معاشهم زائدة على الضرورى منه .

وإذا كانت البداوة أصل الحضارة فإن الحضارة غاية البداوة ونهاية العمران[2] ، ويستفاد من هذا شمول رؤية العلامة ابن خلدون لمفهوم الحضارة وأنها تعبر عن الدرجة العالية للتقدم الإنسانى فى الجانب المـادى ممثلا فى العمران والصناعة ... والجانب المعنوى ممثـلا فى العلم ونظم الإدارة وربط العلم بالعمل والسلوك ...

---

(١) راجع العلامة ابن خلدون المقدمة وراجع ابن منظور المرجع السابق .

(٢) راجع ابن خلدون المرجع السابق وراجع المعجم الفلسفى للدكتور جميل صليبا ج ١ ص ٤٧٦

وقد أشار « ول ديورانت » فى كتابه قصة الحضارة فى العصر الحديث إلى أن الحضارة : « نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى »[1] .

كما أن أصحاب المعاجم الحديثة يعرفون الحضارة : « بأنها مظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى والاجتماعى فى الحضر »[2] .

ومن خلال هذا التحديد يتضح أن مفهوم الحضارة مرتبط بمفهوم التقدم سواء أكان فى العمران البدوى أو العمران الحضرى ولا يعكس على هذا وذاك إلا قصر تلك المظاهر على الحضر ، أى المدن ، لأنه من الثابت كما قال أهل الحق : « حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق »[3] ، ولا دخل للمكان فى تغير حقائق الأشياء وطبائعها ؟

فـــلو وجدت تلك المظاهر بعينها أو بعض منها فى العمران البدوى أو العمران الحضرى ما اختلفت ، لأن حقائق الأشياء ثابتة كما تبـــين فيما تقدم .

وهذا يوقفنا على شمول رؤية العلامة ابن خلدون لماهية الحضارة وأنها نمط من الحياة المستقرة فينشىء القرى والأمصار كما يقول ألبرت أشفيتسر فى كتابة « فلسفة الحضارة أن الحضارة هى التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماهير على السواء »[4] .

---

(١) قصة الحضارة : ول ديورانت ج ١ ص ٣ ترجمة د / زكى نجيب محمود ط الرابعة ١٩٧٣ م

(٢) المعجم الوسيط ، وراجع المرجع السابق .

(٣) راجع العلامة سعد الدين التفتازانى :
شرح العقائد النسفية ص ٨ ط مكتبة خير كثير باكستان .

(٤) فلسفة الحضارة لألبرت اسفتيسر ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوى =

وهذا يتكامل مع ما سبق أن وقفنا عليه من أن الحضارة تعد نقلة تقدمية فى الفكر وفى السلوك وفى أسلوب التعامل مع الناس والأشياء .

كما يوقفنا على أن الحضارة لها طبيعة مزدوجة ، فهى من ناحية تحقق نفسها فى سيادة العقل على قوى الطبيعة المتعددة ، ومن ناحية أخرى فى سيادة العقل على نوازع الإنسان ، وليس يكفى إطلاقا أن يسود العقل على الطبيعة المادية الخارجية ، فهذه السيادة وان كانت تمثل تقدما إلا أنه تقدم تقترن فيه المزايا بالمساوىء التى يمكن أن تعمل فى اتجاه مضاد للحضارة[1] كما تبين فى صدر الحديث وأن كل المخالفات التى تصيب الحضارة إنما هى كامنة فى عدم تلبية حاجات النفس الإنسانية كـكل ، والاقتصار على الجانب المادى وإهمال الجانب الروحى ، وهنا تكون الحضارة قائمة على سلم الهدم لا البناء كما أشار إلى ذلك ابن خلدون حين قال: أن الحضارة غاية العمران ونهاية عمره وأنها مؤذنة بفساده[2] .

وليس هناك من شك فى أن الجانب المادى ليس هو كل شىء بل هناك عوامل كثيرة تشترك معا فى تكوين الحضارة ، ويشير « ول ديورانت » فى هـذا الصدد إلى عوامل جيولوجية وجغرافية واقتصادية ونفسيه ، وكما يقول : وهى تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق ، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف ، تحررت فى نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع

= ومراجعة الدكتور زكى نجيب محمود ص ٣٤ ط المؤسسة المصرية العامة بوزارة الثقافة بالقاهرة .

(١) راجع معالى الوزير الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق : الحضارة فريضة إسلامية بحث بحولية كلية أصول الدين بالقاهرة ص ١١ العدد العاشر ط ١٩٩٣ م .

(٢) راجع العلامة ابن خلدون المقدمة .

والإنشاء ، وبعدئذ لا تنفك الحواجز الطبيعية تستنهضه للمضى فى طريقة إلى فهم الحياة وازدهارها »[1] .

وعلى هذا فالأساس المشترك لمفهوم تقدم الحضارة وأمنها هو الإنسانية التى تشمل الخصائص العقلية والوجدانية والسلوكية التى يتصف بها الإنسان الاجتماعى الواعى لذاته ولمجتمعة فى كل زمان ومكان ، كما أن القاسم المشترك لبناء الحضارة هو الفطرة الإنسانية التى فطر الله الخلق عليها بكل ماتحمل هذه الفطره من معنى لبناء الحضارة فى الفكر وفى السلوك لارتباطها بالإيمان ...

وذلك لأن الإيمان وحده غير كاف لأن الله تعالى قرن العمل بالإيمان قال تعالى : « وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات »[2] ؟

ومن هنا كانت إيجابية البناء الحضارى فى الإسلام ، وأنه لا يتحقق بغير العمل المواكب للفطرة والدين ، كما أنه من هنا أيضا أصبح الدفع الدينى عاملا أساسيا فى بناء الحضارة الإسلامية وتجديدها على مر العصور بأهداف إنسانية عالية تبعث على نماء الفطرة فى حياة كل الناس ، وهذا التميز إنما يتم فى إطار منظومة من القيم تتعدى الإطار القبلى الضيق أو السلالة أو الجنس أو الإقليم أو اللغة إلى دائرة الإنسانية الأوسع والأرحب قال تعالى : « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله

---

(١) راجع قصة الحضارة : ول ديورانت ج ١ ص ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود ط الرابعة بالقاهرة عام ١٩٧٣ م .

(٢) تكملة الآية « ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون [سورة النور الآية ٥٥] .

ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[1] فالنفس أو الفطرة خلقها الله تعالى وأودع فيها هذا الاتجاه الذى يطهرها من المخالفات ، وان الإنسان مهما ابتعد عن منهج الخالق فلن يستطيع أن يغير فطرته ، واذا كان الدين أمرا فطريا فى الإنسان فى كل زمان ومكان ، فإن الإسلام هو الدين الذى رضيه الله للناس جميعا .

ولذا يذكر العقاد : أننا نعنى بالعقيدة الدينية طريقة حياة ، لا طريقة فكر ، ولا طريقة دراسة ، إنما نعنى بها حاجة النفس كما يدركها من أحاط بتلك الدراسات[2] .

ومن هنا كان للدين دور كبير فى تنبيه الإنسان إلى هذه الدائرة مؤكدا على البناء الإسلامى الشامل قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »[3] .

فالدين قوة لا تكافئه قوة فى ضمان تماسك أفراد الجنس الإنسانى واستقرار أمنه ونظامه ، ليس هذا فحسب بل والتئام أسباب الترقى والطمأنينة له ، وذلك لأن الإنسان يمتاز عن سائر المخلوقات بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شىء لا يقع عليه سمعه ولا بصره ، ولا يوضع فى يده ، ولا فى عنقه ، ولا يجرى فى دمه ولا يسرى فى عضلاته وأعصابه وانما هو معنى إنسانى اسمه العقيدة .

---

(١) سورة الروم الآية ٣٠

(٢) العلامة عباس محمود العقاد فى كتابه العقائد والمذاهب : مجلد رقم ١١ ص ٤٠٢ ط دار الكتاب اللبنانى بالقاهرة .

(٣) سورة الحجرات الآية ١٣

ومن هنا كان الإنسان مقود أبداً بفكرة صحيحة أو فاسدة ، فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شىء ، وإن فسدت فسد كل شىء[1] .

وبذلك كانت قيمة الإنسان فى الحضارة الإسلامية منبثقة من ذاته هو لا من أمر خارج عن نفسه . أو أمر لا بد له من الحصول عليه كاللون أو الجنس . . .

والعمل الصالح هو الترجمة الحقيقية لصدق الإيمان

ولذا فمن الخطأ البين أن نظن أن فى نشر العلوم والثقافات وحدها ضمانا للأمن والرخاء ، وعوضاً عن التربية والتهذيب الدينى والخلقى وذلك لأن العلم سلاح ذو حدين : يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير ، ولا بد فى حسن استخدامه من رقيب يوجهه إلى خير الإنسانية ، وعمارة الكون ، لا إلى نشر الشر والفساد . ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان[2] .

والعقيدة الإسلامية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية فى مختلف ملكاتها ومظاهرها ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين من طبيعة الإنسان نفسه ، فقد خلقه الله تعالى ، ومنحه طبيعة الكائن المتكيف[3] .

---

(١) راجع دكتور محمد عبد الله دراز كتاب الدين ص ٩٩ ط دار القلم عام ١٤٠٠ هـ ،

(٢) دكتور سامى حجازى : « الدين وأثره فى بناء الفرد والمجتمع » : بحث بحولية كلية أصول الدين العدد الثالث عشر عام ١٩٩٦ م .

(٣) راجع دكتور سامى حجازى : بحث بعنوان « الدين وأثره فى بناء الفرد والمجتمع » بحولية كلية أصول الدين بالقاهرة ص ٥٧ العدد الثالث عشر سنة ١٩٩٦ م .

وعلى ذلك فحاجة الإنسانية إلى الدين نزعة فطرية وأصلية ركبت فيه وفطر عليها .

إن المتأمل لماهية الحضارة الإسلامية فى التفاعل مع الحضارات الإنسانية واستقرار الأمن الداخلى يقف على أن الإسلام أقام رؤية شاملة للكون ..... والحياة ..... والانسان .

وكلها تتكامل فى اتجاه بناء الفطرة والدين حيث كرم الله الإنسان بالعقل وأعلى من شأنه بقيمة التفكير وحثه على ضرورة ممارسة العقل لوظيفته التى خلق من أجلها وهى التفكير والتأمل فى الكون كله .

كما أن المتأمل لماهية الحضارة المعاصرة ، ممثلة فى الاكتشافات العلمية والتقدم المادى فى هذا العصر يقف على أنهما بلغا مبلغاً ملحوظا لم يتحقق من قبل ، ومع هـــذا التقدم المادى يعانى البشر أزمات متعددة فى كافة جوانب الحياة . حتى جعلتهم لايهتمون بما وصلوا إليه من إنجازات متطورة ومتعددة . ولذا يقول صاحب دراسة الإنسان ذلك المجهول : « أن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب لأنها لا تلائمنا ، فقد أنشئت دون أى معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية . وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ورغباتهم الجزئية [1] .

ومن أجل ذلك يتابع الدكتور الكسيس كاريل حديثه فى كتابة — الإنسان ذلك المجهول — إلى القول بأنه وعلى الرغم من أن الحضارة العصرية أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة لحجمنا وشكلنا » [2] الأمر الذى ترتب عليه تفشى ألوان الأزمات المتعددة .

---

(١) دكتور الكسيس كاريل فى كتابة « الإنسان ذلك المجهول » تعريب شفيق أسعد ص ٣٨ ط الثالثة بيروت ١٩٨٠ م ،

(٢) المرجع السابق .

وإذا أمعنا النظر لمعرفة أسباب هذه الأزمات المتعددة وما ينتج عنها من قلق شامل وانفصام متزايد ، وتوتر مستمر ، وانحراف بغيض . . . أدركنا أن هذا وذلك ناتج عن الحضارة المادية التى طمست معالم الفطرة والدين فى ذات الإنسان .

كيف وأصل الدين فطرة أصلية فى النفس البشرية ؟ تقوم على تنمية الجانب المادى والروحى فى ذات الإنسان ، وحاجة الروح الإنسان إلى الدين كحاجة الجسم الإنسانى إلى الطعام والشراب ليس هذا فحسب بل والهواء والتنفس ؟ .

إن الحضارة المادية لم تشبع كل حاجات النفس الإنسانية ، ولم ترض أشواقها وتطلعاتها ، ولم تفسر لها ماهية حياتها وسر وجودها ، ولم ترو ظمأها إلى الخلود ، فهذه كلها ليست وظيفة الحضارة المادية ، ولا الفلسفة المادية ، وإنما هى وظيفة الفطرة والدين . وليست هذه دعوى بدون دليل

فالواقع أن الناس كل يوم يزدادون شعوراً بالحاجة إلى الفطرة والدين من جانب كما يزدادون نقمة على مادية الحضارة وآليتها وتطرفها من جانب آخر ، ويشكون الفراغ والسأم والتفاهة وفقدان الهدف فى حياتهم الصاخبة اللاهثة !!

إن العلم المادى قد أعطاهم وسائل الحياة ، ولكنه لم يعطهم غاياتها ، أنه زين لهم ظاهرها ولكنه لم يصلهم بأعماقها وأسرارها ، لقد وفر لهم المتعة المادية الموقوتة ، ولكنه لم يحقق لهم السكينة التى هى سر السعادة الدائمة إن أبلغ تعبير عن ذلك ، ماقاله أحد مفكرى الهنود لأحد مفكرى الغرب : لقد أحسنتم أن تحلقوا فى الهواء كالطير ، وأن تغوصوا فى الماء كالسمك ولكنكم بعد لم تحسنوا أن تمشوا على الأرض كالإنسان !!

وهذه حقيقة اعترف بها رواد الحضارة المادية[1] والمفكرون الغربيون ليس هذا فحسب بل واستنكروها فى نفس الوقت يقول العالم الفرنسى: « الكسيس كاريل فى كتابه الإنسان ذلك المجهول »، « لقد استطعنا الظفر بالسيادة تقريبا على كل شىء موجود على ظهر البسيطة فيما عدا أنفسنا »[2] ثم يتابع الحديث فيقول « أن جميع ماحققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان مازال غير كاف وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية »، [3] ومن سوء حظ الإنسان أن خططه كانت ناقصة، لأن علوم المادة غير الحية تقدمت بأسرع مما تقدمت به علوم الحياة، فعرف

---

(١) ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر المفكر النمساوى « ليوبولدفايس » الذى أسلم وتسمى باسم (محمد أسد) فى كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) وأيضاً الفيلسوف الفرنسى (رينه جيتو) الذى أسلم وتسمى باسم (عبد الواحد يحيى) فى كتابه (أزمة العالم الحديث) وحاجته إلى رسالة الإسلام كما يمكن أن نرجع إلى ما كتبه الدكتور (الكسيس كاريل) فى كتابه الإنسان ذلك المجهول والدكتور هنرى لنك فى كتابه (العودة إلى الإيمان، وكولن ولسون فى كتابه (سقوط الحضارة) والمؤرخ والمفكر الإنجليزى المعاصر أرنولد توينبى فى موسوعته (دراسة التاريخ) ج ٤ ، ج ٧، وقوله بفناء الحضارات واستحالة وصول المجتمع الإسلامى إلى تلك المرحلة بإعتبار أن الدين هو العامل فى بقاء الحضارة ومادامت أصول الإسلام الإلهية محفوظة فلا مناص مع الزمن من عودة الحضارة الإسلامية إلى سيادة الأرض والعالم مرة أخرى .

(٢) دكتور الكسيس كاريل فى دراسة (الإنسان ذلك المجهول تعريب شفيق أسعد فريد ص ١٦، ١٩ ط الثالثة ١٩٨٠ م

(٣) نفس المرجع السابق .

الإنسان قوانين الميكانيكا والطبيعة والكيمياء، ولكنه لم يعرف نفسه، وجهل الحاجات الحقيقية لجسمه وروحه، فهو، إذن قد خلق جنة لا تلائمه، خلق عالما هندسياً جامداً يخلو من التناسق والجمال اللذين يتوافران فى الحيوانات البرية، والنباتات والأشجار والمياه، وقضى على نفسه بأن يعيش بين عالم الآلات الذى لاروح له، وتحت رحمة تقدم الأساليب الفنية، دون أى اهتمام بطرائق طبيعته الجوهرية، وهكذا خرج على قوانين الحياة دون أن يدرى[1]

لقد أثرت الحضارة المادية الجانب المادى من الكون والإنسان والحياة وتجاهلت أهم مافى الإنسان وهو روحه وقلبه وإيمانه ولذا يقول (أندريه مالرو) لابد من أن تتوازن الجوانب المادية والروحية فى بناء الحضارة، وعلى الإنسان ألا يكتفى فى بنائه بالجانب المادى عن الجانب الروحى، كما لا يكتفى عن الناحية الروحية بالإنتصارات التكنولوجية القائمة على المنفعة أو الشهوة التى يصنعها العقل)[2].

وحسب هذه الحضارة أنها من وضع البشر للبشر، وأنها تنكرت لكل دين فكان ما كان من الحيرة والتخبط والضياع،

وقد عبر عن هذه الحضارة المفكر النمساوى محمد أسد خير تعبير فقال: وقد كان البلاء الأكبر فى حضارة اليونان والرومان قديما وفى

---

(١) دكتور الكسيس كاريل (تأملات فى سلوك الإنسان) الحضارة الحديثة فى الميزان) ترجمة د. محمد محمد القصاص مراجعة الدكتور محمود قاسم ص ٢٣٣ نشر مكتبة مصر بالفجالة وراجع ص ٤١

(٥) راجع دكتور أحمد نوفل (نظرات فى الثقافة الإسلامية) ص ٢٥٤ بتصرف يسير مع تقديم وتأخير

حضارة الغرب الحديثة ممثلا فى سيطرة المادية فى غاياتها وأهدافها ومن هنا نشأ الفساد والحروب ،(١) .

ولذا كان لابد للإنسان من حضارة تعتنى به إعتناء كاملا ، جسداً وروحاً ، غريزة وعقلا ، لتلبية مقتضيات فطرته التى فطر عليها من جانب ولتمنحه الأمن والطمأنينة والسلام والأمان من جانب آخر .

هذه الحضارة هى حضارة الإسلام التى قامت على الشمول للكون والإنسان والحياة كما تبين فى صدر الحديث ولهذا الشمول لقب الإسلام بأنه دين الحضارة الإسلامية وذلك بمعنى أنه كان منذ نزوله دين عبادة وهو الدين الذى رضيه الله للناس جميعا حيث أنزله خالق الإنسان للإنسان ، وأنه أنشأ بناء من الحضارة عرف بأسمه وهو الحضارة الإسلاميه التى استمدت كل مقوماتها وعوامل ديمومتها وأسس وجودها من الإسلام ذاته حتى أصبحت وعاء للحضارات الإنسانية عامة .

ومن هنا كان الإسلام دين الحضارة والإنسانية .

ولذا كان بحثنا عن إنسانية الحضارة الإسلامية وآفاقها فى المجتمعات الإنسانية فى نطاق العصر الذى نعيش فيه منعكسا عن الماضى ، وما ذلك إلا لأن الماضى هو السمة التى تقيم الحاضر والمستقبل .

ومن هنا أيضاً كان حرص الأمم والشعوب على ماضيها والاعتزاز به ، إذا كان قائماً على أسس وقواعد صحيحة ، وكأنه شهادة على أصالتها الإيمانية هذا من جانب ومن جانب آخر فإن الأمة التى لا تصل ماضيها بحاضرها أمة تشعر باليتم والضياع ، ليس هذا فحسب بل وتعيش متحيرة بين التيارات يقتنصها هذا ليسلمها إلى ذلك حتى تضل الطريق :

(١) راجع دكتور عبدالكريم عثمان (معالم الثقافة الإسلامية) ص٩٨ ط الخامسة ١٩٧٨ م

ولهذا وذلك كان حرص الأمم والشعوب على أن تبنى حضارتها على التراث وتأخذ منه خيط البداية حتى لا تضل الطريق كما قلنا .

ومن هذا المنطلق ينبغى أن يراجع التراث الحضارى لأى أمة من الأمم فى ضوء الحقائق التالية :

حقائق لقراءة التراث الحضارى :

• الحقيقة الأولى :

أصالة الدين فى الفطرة الإنسانية وضرورته باعتبار وحدة مصدره وتعدده باعتبار تعدد الرسالات السماوية فى أصل الاعتقاد وتتلخص فى

— توحيد الله سبحانه وتفرده بالخلق (لاشريك له) .
— توحيد الله سبحانه فى العبادة (لامعبود بحق سواه) .
— نفى مماثلة المخلوقات له فى الذات والصفات والأفعال .
— الربط بين أركان الإيمان التى حملتها رسالات السماء ممثلة فى الإيمان بالله واليوم الآخر .

• الحقيقة الثانية :

أن الماضى العقدى هو السمة التى تدفع إلى بناء الحاضر والمستقبل وتظل منسوبة إليه صادرة عنه طالما كان قائما على ربط الايمان بالخلق والسلوك حتى بات الدفع الايمانى عاملا أساسياً فى بناء الحضارة الاسلامية وتجديدها على مر العصور .

• الحقيقة الثالثة :

الحاجة إلى تنمية الطاقة الروحية لدى الانسان لأن الحياة الروحية ظاهرة من الظواهر الانسانية التى يمتاز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات

• الحقيقة الرابعة :

وتتلخص فى تأكيد المسئولية الذاتية للإنسان فى كل زمان وفى كل مكان لتحرير الانسانية من العبودية لغير الله تعالى انطلاقا من وحدة الرسالات السماوية للإنسانية جمعاء .

• الحقيقة الخامسة :

وتقوم على البيان التاريخى للحضارات الإنسانية، وأن الإسلام أسس منهاجاً متكاملا للتعامل بين الشعوب والحضارات المتعددة حيث أقر بوحدة الأصل الإنسانى ، وتعدد الأجناس وقنن هذا الاختلاف وربط المسلمين مع سائر أفراد البشر بترسيخ معالم حضارته الإيمانية التى هى فطرة كل نفس ، ولذا فلم يكن منذ أيامه الأولى دين عنصر أو جنس أو سلالة أو قومية معينة من البشر ، وإنما جمع الخلق وساوى بينهم برباط الأخوة الإنسانية القائمة على التكافل والتكامل الإنسانى ، ومن هنا لم تكن الحضارة الإسلامية من أجل المسلمين وحدهم وإنما كانت حضارة عالمية من أجل الإنسانية جمعاء لتفردها بالأسس الإيمانية التى نادت بها كل رسالات السماء من جانب ولتلبيتها لكافة احتياجات الإنسان المادية والروحية من جانب آخر لدوام مصدرها الإلهى ، والتى جاء بها الإسلام لتواكب بناء الإنسان فى كل زمان ومكان وللإنسانية كافة .

ومن هنا كانت عالمية الحضارة الإسلامية وإنسانيتها بتحقيق مقتضيات الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها وتتلخص فى أمرين :

الأمر الأول : فى موقف الإنسان تجاه ذاته أولا من حيث إيمانه بالله تعالى واليوم الآخر ، وهنا تتضح نظرته إلى الحياة فى ضوء البيان الإيمانى القائل « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات

وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »(١) ، وقوله تعالى : « واذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »(٢) .

فبالتكريم والخلافة فى الأرض تتحد نظرة الإنسان إلى الحياة وتحفظ عليه وجوده .

الأمر الثانى : ويتلخص فيما يدور بين الإنسان وبين غيره من علاقات وما يقوم به من أنواع الأنشطة المتعددة، وما ينسحب على الفرد ينسحب على الأمة تجاه غيرها من الأمم ، وفى علاقاتها معها فى إطار من الوعى الإجتماعى الذى يزداد به نموه الثقافى رقيا بخلاف الأنانية : التى هى إضافة الأمور كلها إلى النفس ، وكما قال صاحب المعجم الفلسفى : هى حب الذات الشديد الذى يمنع صاحبه من حب شىء آخر غير نفسه »(٣) وما ذلك إلا لأن الأنانى هو الذى لم يستيقظ فيه الوعى الإجتماعى، فتفكيره ومشاعره وجميع أوجه نشاطه تدور حول ذاته كما يقول التهانوى : « الأنانية عبارة عن الحقيقة التى يضاف إليها كل شىء من الشخص كقولك نفسى وروحى وهذا كله شرك خفى »(٤) .

فلا يشعر بوجود غيره ولا يهتم بأمره ، ليس هذا فحسب بل ويود لو أنه استحوذ على الدنيا كلها بما فيها ومن فيها حتى يصل إلى أنه لاحق لغيره فى الحياة .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠

(٢) سورة البقرة الآية ٣٠

(٣) راجع دكتور جميل صليبا « المعجم الفلسفى » ج ١ ص ١٤٢ ط بيروت لبنان ١٩٨٢ م

(٤) المرجع السابق .

أما الإنسانية فتدل على ما اختص به الإنسان من الصفات المعادية للأنانية، وذلك لأن قوامها — المشاركة الوجدانية — ولذلك قال الحكيم «إنه من كان للعلم الزم، وعليه أحرص، وأدوم، وفيه أرغب، فهو إلى كمال الإنسانية أقرب»[1] تلك الإنسانية التى هى المحبة والتعاون والمساواة والعدالة، والحرية، والرحمة والإحسان ...

فالإنسانية تناهض الفردية «الأنانية» لتنشر بديلها هذه المشاركة الوجدانية من جانب وتخالف المنازع الفردية المسرفة حتى تردها إلى مافطرت عليه، من جانب آخر. فالخصائص التى تعبر عن هذه القيم السالفة هى خصائص إنسانية كما أنها مناط التفاضل والتكريم والخلافة فى الأرض وهذا هو بناء عالمية الدين فى الحضارة الإسلامية التى لاتصادم طبيعة الإنسان التى جعلها الله مزيجا من المادة والروح.

وفى ضوء ماوقفنا عليه يتضح موقف الحضارة الإسلامية من الجانب المادى والعلم التجريبى القائم على تطويعهما لنماء الإنسان والإنسانية، فالعلم المادى ليس محذوفا من حياة الإنسان فى دائرة الحضارة الإسلامية، بل أنه مظهر للنور الذى يضىء جوانب النفس الإنسانية على اعتبار أنه شاهد له على خالقه.

وعلى هذا فتوكيد المعنى الروحى فى حياة المسلم لا يكون باستبعاد القوى المادية وإنما يتحقق بتنظيم علاقة الإنسان بهذه القوى على هدى النور المنبعث من العالم الموجود فى أعماق نفسه[2].

---

(١) المرجع نفسه ج ١ ص ١٥٨

(٢) راجع العلامة محمد اقبال «تجديد الفكر الدينى فى الإسلام ص ١٦

ومن هنا كان للإسلام دور كبير فى أمن الإنسان وتنبيه الأذهان إلى هذا البناء القائم على فطرة الدين التى شيدت له حضارة عالمية متميزة، ولذا فمن المفيد بعد هذا البيان أن نلخص بعض الضوابط التى يمكن استثمارها فى البرهنة على عالمية الحضارة الإسلامية ودعوتها إلى الأمن:

أولا: أن الإنسان فى نظر الإسلام هو الأساس فى بناء أى حضارة، تتوفر فيها المعانى الإنسانية، والقيم النبيلة ولذا ينبغى الحفاظ على كرامته، والاعتزاز بخصائصه وتقدير عطائه ... وإقرار نوازعه لتأخذ الفطرة الإنسانيه امتدادها فى بناء الحضارة ولا شك أن نفاسة العنصر الإنسانى، ووضعها فى المقام اللائق بها تمكنه من بناء حضارة الأحرار ... أما استبعاد ذلك الإنسان فإنه لا ينتج إلا حضارة الرقيق ...

ثانيا: أن الله تبارك وتعالى توج الإنسان بتاج آية الاستخلاف[1]،

---

(١) قال تعالى: فى سورة البقرة «واذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك».

قال: إنى أعلم ما لا تعلمون.

وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين.

قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

قال: يا آدم أنبئهم باسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم .... (الآيات). إلى قوله تعالى: «فأما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» الآيات من ٣٠ إلى ٣٨

ووكل إليه عمارة الكون وبناء الحياة ... وسخر له قـــوى الطبيعة كلها تسهيلا لمهمته وتيسيرا لرسالته، ودعما لكرامته.

ثالثا: أن الإنسان إنما يستمد كرامته فى الأرض من منبع واحد فقط، وهو تذكرة لعهد ربه الذى أخذه عليه فى الملأ الأعلى، ليظل دائما فى حمى الله، فلا تستذله قوى الشر، ولا ترهقه قوانين البشر، ولا يستغويه الشيطان فيصده عن ذكر الله، وكل ذلك يقتضى أن يقر الإنسان مشيئة الله فى أرضه، ويحرس مبادئه، ويقيم حدوده... ليس ذلك فحسب بل ويحمى هذه المبادىء أن تنال منها قوى الشر، أو تحطمها إرادة البغى، أو تعبث بها شياطين الأنس، وفى ذلك أمنه واستقراره وهداه وبذلك تتهيأ الساحة الحضارية التى تشيدها قوى العلم والإيمان، لسعادة الإنسان وأمنه وبناء حضارته العالمية وليست هذه دعوى بدون دليل فغاية العلم الكشف عن الحقائق وأمن الإنسان فى الحياة. وغاية الدين هداية الإنسانية فى الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة.

رابعاً: أن أسس بناء الحضارات لا يمكن أن نتصورها فى قوانين من وضع البشر ... لأن الإنسان عاجز عن فهم أقرب شىء إليه وهى نفسه التى بين جنبيه، وإدراك ذاته. وأن المنهج الحق هو ما وضعه العليم الخبير الذى خلق فسوى وقدر فهدى ... قال تعالى: «ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون»[1].

ولذا فالأمم التى تحللت من الدين الإلهى واعتمدت على بناء حضارتها بالمناهج البشرية تعيش تجربة تعيسة إن فى الشرق أو الغرب بخلاف ما إذا كانت أصولها واقعية فإنها تعطى للبناء قوة النماء وتمنح الهداية إلى الطريق المستقيم.

(١) سورة الجاثية الآية ١٨

وما ذلك إلا لأن الله خالق الكون، وبارىء الإنسان. والكون والإنسان معا يستمدان من الله... ويتحركان بإرادته... فالانسان نفخة من روح الله. وقطعة من الطين.

والكون سماؤه وأرضه من صنع الله وتسخير الكون للإنسان يتم بتيسير الله، وتفاعل الانسان مع عناصر الأرض يتم أيضا بالهام من الله.

والمعرفة التى يفتقر إليها الإنسان ليدعم وجوده على ظهر الأرض نفحة من العلى القدير، والهداية التى يستظل بها تكمن فى العهد الذى أخذه خالق الإنسان على الإنسان.

ولذا فعندما نبنى حضارة خالدة فلا بد من رعاية هذا الترابط... وترجمته إلى واقع، تعلى قيمة الإنسان فى تمسكه بعهد ربه، وعمله بمنهجه، واستفادته من عمله فإذا فسق عن ذلك فقد غوى وخالف ما به قوام حياته وأمنه. وقيمة الكون أن يتخذ منه الإنسان مجالا للفكر، ومقرا للبناء والعمل.

ومادام الإنسان والكون مصدرهما واحد... فإن عليهما أن يتآخيا فى رحلة الحياة. فإذا تم التآخى بين الإنسان وكونه تم له الخير كله وتمكن من التأسيس النبيل لبناء حضارة إنسانية.

وفى انفصالهما، ضياع لأبسط النواميس والسنن الإلهية.. وكيف ينفصل الإنسان عن كونه مع أن ربهما واحد أحد.

(١) راجع الأستاذ توفيق محمد سبع «قيم حضارية فى القرآن الكريم» ج ١ ص ١٨٠ وما بعدها ط مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٢م

الله سبحانه يوحى بالمنهج والإنسان يتلقى عن ربه ويصدع لمشيئته وأمره، والأرض هى ساحة الحضارة التى تستغل عناصرها فى البناء والتشييد[١].

وكل هذه المعطيات توقفنا على أن الحضارة الإنسانية لا تقاس بتفوقها المادى، فقد تستخدم فيما يخالف فطرة الإنسان بالقهر والتسلط والطغيان ولذا يخاطبنا الله تبارك وتعالى فيقول: «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون»[١].

فالآية الكريمة تدعو إلى وجوب الوفاء بالعهود فى جميع الأحوال، وتنهى عن اللجوء إلى الذرائع الباطلة، من أجل نقض العهود.

إذ الإسلام لا يقر هذه الذرائع وتلك المبررات، بدعوى أن هناك جماعة أقوى من جماعة، أو دولة أعز من دولة وإنما الذى يقره الإسلام هو مراعاة الوفاء بالعهود الذاتية والجماعية، من جانب[٢]، وعدم اتخاذ الأيمان وسيلة للغش والخداع من جانب آخر، بقصد استبعادها واستنزاف خيراتها، فليس التفوق المادى أو القله والكثرة إذن دليلا على التحضر الإنسانى بإطلاق، فقد يعيش مجتمع ما فى حضارة مادية، ولكنه فى الوقت نفسه ليس متحضرا إنسانيا.

(١) سورة النحل الآية ٩١، ٩٢

(٢) راجع فضيلة الاستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر «التفسير الوسيط للقرآن الكريم». تفسير سورة النحل مجلد رقم ٨ ص ١٧٥ ط ١٩٨٤ م

وذلك لأن البناء الحضارى — كما تبين فيما تقدم — ينطلق من تقديم كل إنتاج أو عمل تنعكس فيه الخصائص الفكرية والوجدانية للإنسان الاجتماعى الواعى فى إطار من القيم العليا، والضوابط والسلوكيات المثالية الخالدة التى لا تناقض أصل الفطرة السليمة وحرمات النفس الإنسانية التى هى القاسم المشترك بين بنى البشر.

ولذلك ينبغى أن نضيف إلى الضوابط التى وقفنا عليها للبرهنة على إنسانية الحضارة الإسلامية ودعوتها إلى الأمن الشامل الحديث عن إيقاظ الوعى بصورة المتعددة والمتجددة بما يناسب العصر فى كل عصر كما يكشف الستار عما تحمله هذه الحضارة فى ثناياها من عناصر القوة الذاتية، وما تزخر به من طاقات حية تجعلها قادرة فى كل وقت على العطاء والتوجه فى كافة جوانب الحياة بالإضافة إلى ما تتمتع به من حصانة ومناعة تجعلها قادرة على الصمود فى وجه العواصف والأمواج المخالفة للفطرة التى فطر الله الناس عليها.

وفى هذا تنبيه لعشاق الحق وأنصار الحقيقة إلى الدور العظيم والعطاء الشامل الذى ينتظر أن تقوم به إنسانية الحضارة الإسلامية المستمدة من رسالة القرآن كما كانت فى العصور السالفة وفى هذا العصر المدعو عند الكثيرين من الناس بعصر العلم وفيما بعده من العصور لهداية الإنسان فى كل زمان ومكان ومنفعة الناس أجمعين.

وبهذا أكد القرآن الكريم على القيمة الذاتية للإنسان، وهى العقيدة التى تضافرت الرسالات السماوية على ترسيخها فى نفوس المكلفين قال تعالى: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»[١].

(١) سورة الشورى الآية ١٣

وفى هذا البيان الإيمانى ما يوقفنا على تفرد الحضارة الإسلامية فى أمن الإنسان واستقرار المجتمع ، وأن القرآن الكريم أقام طريقاً فطرياً للإيمان بالله تعالى تتجلى فيه الأسس والمقومات والخصائص العقلية والوجدانية للإنسان الذى يملك الوعى الذاتى ووسائل الوعى الكونى ليس هذا فحسب بل والوعى الوجدانى ، ولعظم أثر هذه العقيدة فى حياة الإنسانية لم يقبل الخالق من المخلوق فيها هوادة أو مساومة .

قال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فلقد افترى إثما عظيما »[1] .

ومن هنا يتضح تأكيد القرآن الكريم للقيمة الإيمانية للإنسان وتحريره من العبودية المخالفة للفطرة وأنها لا تكون إلا لله الواحد الأحد .

وبعقيدة التوحيد الخالص كان القرآن هو الدستور السماوى الذى حرر الإنسانية من الإذلال والطغيان بكل صوره وأشكاله هذا من جانب ومن جانب آخر فالقرآن الكريم فى بنائه للحضارة الإسلامية لم يكتف باتخاذ الموقف النظرى فى دعوته وهو مجرد الإيمان بالله تعالى بل ربط بين الإيمان والعمل فى عقد واحد وهو الدين الذى أنزله لله تعالى للعالمين .

إن القرآن الكريم أقام الترابط بين الجوانب الروحية والمادية والتقاء عمل الإنسان الدنيوى والأخروى ، وتكامل العقل والقلب وشمول العقيدة والشريعة والسلوك دون انفصال ، وذلك لأن النفس الإنسانية لا تتغذى بالحقائق النظرية وحدها فبجانب حاجة الإنسان إلى

(١) سورة النساء — الآية ٤٨

المعرفة والاعتقاد يحتاج فى إلحاح إلى القاعدة العملية القادرة على توجيه نشاطه فى كل لحظة من حياته[1] ..

ولبيان ذلك لا نكاد نجد آية من كتاب الله تذكر فيها الأوامر والتكاليف إلا مقرونا بها الأمر بالفضائل من الإيمان والإحسان والبر .

قال تعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار »[2] كما قال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا »[3] .

ومن هنا فكل ما جاء به القرآن من أحكام وشرائع ، كما تناولتها الآيات المتضمنة لذلك قد بدئت بنداء المؤمنين ، أو ختمت بشرط الإيمان مما يؤكد أن العقيدة السليمة تثمر العمل الصالح ، ولذا اعتبر القرآن أثرهما من أعظم مقومات الحضارة الإسلامية للإنسان فى الشرق أو الغرب .

والواقع أن القرآن الكريم الذى أهدى إلى البشرية قام على محور واضح الدلالة فى التركيز على بناء الإنسان على نحو شامل جامع ، ومن خلال منهج يربط بين المادة والروح ، ولاريب أن هذه الحقيقة تجعلنا نعتقد أن الكتب السماوية السابقة له ، والتى جاء مصدقا لها وكذلك رسالات السماء كلها التى جاء الإسلام متمما لها قد أولت عناية كبرى بالإنسان ، وأن كل المعانى التى كانت تزخر بها الحياة البشرية قبل الإسلام

(١) راجع الدكتور / محمد عبد الله دراز « مدخل إلى القرآن » ص ٨٧ ، ط الأولى ١٩٧١ م

(٢) سورة البقرة — الآية ٢٥

(٣) سورة مريم — الآية ٩٦

من قيم الأخلاق والعلم إنما تعود إلى تراث الأديان أساسا وإلى الفكر الربانى الأصل الإنسانى الطابع ، بينما تعود كل مفاهيم الوثنية والإلحاد والظلم والجحود إلى تراث الفكر البشرى [١] .

وفى هذا المقام يحدثنا القرآن الكريم دستور الحضارة الإسلامية فى كثير من آياته عن الصلة الوثيقة بين المطالب المادية والمعانى الروحية فى حياة الإنسان ، بل انه كثيرا مايلفت النظر إلى التدبر والتفكر فى الكون المنظور كما دل عليه الكون المقروء « القرآن الكريم » باعتبارة أثرا دل على المؤثر فيه ، وهو الله سبحانه وتعالى. وكأن القرآن الكريم — دستور الحضارة الإسلامية — بهذا المعنى يوقفنا على الترابط والانسجام بين عناصر الوجود كله كما يشير إلى هذا قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » [٢] .

ففى هذا البيان الإيمانى توجيه إلهى للإنسان إلى :

• خلق الكون لله سبحانه: الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير .

• بيان ما امتن به الله على الإنسان من تطويع وتسخير الأرض له ، وجعلها ذلولا ، لا تتأبى عليه ، وهى بكل ماتحمله على ظهرها . وفى باطنها

(١) راجع دكتور محمد البهى « الإسلام فى حياة المسلم » ص ٧٧ وراجع الأستاذ أنور الجندى « مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق فى ضوء الإسلام ص ٣٣ ، ط دار الاعتصام .

(٢) سورة الملك الآية ١٥ وراجع دكتور / محمد عبد الستار : بحث بعنوان « روح الحضارة الإسلامية فى حولية كلية أصول الدين بتصرف يسير مع وتأخير ص ١٢٥ ، ط ١٩٨٥ م .

من إمكانيات وما يحيط بها من غلاف جوى ، كل ذلك مسخر للإنسان من قبل الله سبحانه وتعالى .

• أمر الله الإنسان بأن يستفيد من هذه المعطيات ، وفى استفادته على الوجه المناسب شحذ لملكاته ومواهبه حتى يكتشف القوانين العلمية التى يستطيع بها الوصول إلى أحسن وجه لكيفية هذه الإفادة ، ولدوام ارتباطه بفاطرها وفاطره .

• تذكير الإنسان بمبدأ المحاسبة على هذه النعم وكيفية الإفادة منها ، ليس هذا فحسب بل وفيه توجيه لطاقاته الخيرة ، حتى يكون هذا النفع لخير الإنسانية لا لدمارها [١] ماديا أو روحيا ، وبهذا يكشف القرآن الكريم عن طبيعة الحضارة الإسلامية وما هيتها ليوقفنا على ماسبق أن أشرنا إليه فى صدر البحث من قواعد لمراجعة التراث الحضارى واستشراف مطالب الإنسان المادية والروحية بحيث تشكل الأسس الإيمانية إطارا حيويا للحضارة الإسلامية فى جوانبها المتعددة .

وإذا كان الظلم أو الجحود هو سبب الاضطراب العالمى ، بل هو العدو الأول للإنسانية فلا استغراب أن يحرص الإسلام على هذه الضوابط بين المطالب المادية والمعانى الروحية والقيم النبيلة التى دعا إليها « كالحق والعدل والصدق » ويعتبرها من مستلزمات العقيدة لتصبح حقيقة نفسية دافعة إلى التعارف والإخاء . . . .

قال تعالى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » [٢] .

(١) الموجع السابق الأستاذ الدكتور محمد عبد الستار نصار .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣

وقال تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[1] :

ومن هنا نادى دستور الحضارة الإسلامية بتعميق آفاق هذا البناء فى حياة الإنسان والإنسانية كما هو فى النقاط التالية :

١ — إن الحضارة الإسلامية خاطبت الإنسان بما هو إنسان ، فهى لا تعرف حدوداً زمانية أومكانية أوعرقية . . . . وذلك بحكم طبيعة الإسلام العالمية .

٢ — إن الحضارة الإسلامية ساوت بين سائر البشر فى أصلهم قال تعالى : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء »[2] وقال الرسول ﷺ : « كلكم لآدم وآدم من تراب »[3] .

٣ — إن الحضارة الإسلامية راعت العدل بين الناس ، وشملت بالرعاية كل من أقام فى دار الإسلام مسلماً كان أو غير مسلم قال تعالى : « إن الله يأمركم إن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[4] . وقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى »[5] .

٤ — إن الحضارة الإسلامية نادت بالتشريع الذى يجعل القوى

---

(١) سورة النحل الآية رقم ٩٧

(٢) سورة النساء جزء من الآية الأولى

(٣) اللؤلؤة والمرجان فيما أنفق عليه الشيخان .

(٤) سورة النساء الآية رقم ٥٨

(٥) سورة المائده الآية رقم ٨

والضعيف والغنى والفقير والحاكم والمحكوم سواء أمام القانون الإلهى كما يتجلى هذا فى الرحمة والعطف والحرص على نشر الفضيلة ولم تقم على العدوان والقهر والتسلط وبيان ذلك يتضح فى السطور التالية :

إذا كانت الحضارة المعاصرة «المادية» ترى « القوة » نقطة الأستناد فى الحياة وتهدف إلى (المنفعة) فى كل شىء وتتخذ (الصراع) دستورا للحياة وتلتزم بـ (العنصرية) والقومية السلبية رابطة للجماعات .

وأن ثمرتها فى إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية المجافية للفطرة لتأجيج جموح النفس وإثارة الهوى .

فمن المعلوم أن قوه هذا شأنها تمثل « الإعتداء » وشأن المنفعة هو « التزاحم » إذلا تفى لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم .

وشأن الصراع هو « النزاع والجدل » وشأن « العنصرية » هو الاعتداء للتوسع على حساب العناصر الأخرى.

ومن هنا نلمس لم سلبت سعادة البشرية فى ظل الحضاره المادية من جراء اللهاث وراء هذه الفلسفة العنصريه .

أما دستور الحضارة الإسلامية[1] ، فيدعو إلى تقبل « الحق » نقطة

---

(١) بنص المادة (٧) من الدستور المصرى على أنه « يقوم المجتمع على التضامن الاجتماعى » : كما تنص المادة (١٧) على أن تكفل الدولة خدمات التأمين الاجتماعى والصحى ، ومعاشات العجز عن العمل والبطالة والشيوخة للمواطنين جميعاً كذلك وفقاً للقانون . كما تنص المادة (٣٨) من الدستور على أن « يقوم النظام الضريبى على العداله الإجتماعية »

استناد فى الحياة بدلا من « القوة » ، ويجعل « رضى الله سبحانه تعالى » ونيل الفضائل هو الغاية بدلا من « المنفعة » ، ويتخذ دستور « التعاون » أساساً فى الحياة ، بدلا من دستور « الصراع » ، ويلزم برابطة « الدين » كافة الأفراد لربط فئات المجتمع بدلا من العنصرية والقومية والسلبية .

ويجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة ودفع الروح إلى معالى الأمور ، وإشباع مشاعرها السامية لهداية الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية .

إن شأن الحق هو « الاتفاق » ، وشأن الفضيلة هو « التساند » وشأن دستور « التعاون » هو « إغاثة كل للآخر وشأن الدين هو الأخوة والتكاتف ... وشأن إلجام النفس وكبح جماحها وإطلاق الروح وحثها نحو الكمال هو « سعادة الدارين »[1] .

وكل هذه المعطيات توقفنا على أهمية البناء الحضارى الذى قدمه

= وتعترف المادة (٣٢) من الدستور « بأن الملكية الخاصة لها وظيفتها الإجتماعية » .

ولا يخفى أن كل هذه النصوص تكتسب قوتها من أنها تستند إلى أصل إسلامى .

راجع : أصول المجتمع الإسلامى للمستشار الدكتور جمال الدين محمود ص ١٨٠ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٩٨٣ م

(١) راجع بديع الزمان سعيد النورس مجموعة رسائل النور مجلد الكلمات ج ١ ص ١٤٦ وراجع الدكتور محسن عبد الحميد فى بحثه عن النورس متكلم العصر ص ١٩١ ط ١٩٩٥ م

القرآن الكريم للإنسان فى كل زمان ومكان كحضارة أشرق بها نور التوحيد ، ولم تكن قاصرة على المسلمين وحدهم وإنما كانت وستبقى من أجل الإنسانية جميعاً وهذه مفاتيح انسانية الحضارة الاسلامية وعالميتها وبتجلية هذه الحقيقة كما هى فى القرآن الكريم — دستور الحضارة الإسلامية ، يدعونا الأمل إلى أن تتحرك الهمم وتنهض العزائم من جديد لاستئناف الدور المنوط بالدين الذى رضيه الله للناس أجمعين فى ساحة الحضارة الحديثة والعلم الحديث فيعود العلم فى ظل هداية القرآن لهداية الإنسان الذى من أجله كان القرآن كما كان فى صدر الإسلام .

وبالله التوفيق

ا . د . سامى عفيفى حجازى
أستاذ العقيدة والفلسفة
بكلية أصول الدين — القاهرة